# في التحدي بالإسراء والمعراج[1]

## من كلام الإمام العلامة سيدي المصطفى البَحياوي رضي الله عنه


بعناية؛

محمد ابن ادريس العلمي


[1] مقتطفاتٌ من سلسلة شيخنا في شرحه على كتاب الشفا للقاضي عياض رحمه الله.

وقع التحدي بمعجزة الإسراء والمعراج حينَ أنبأ بها النبي صلى الله عليه وسلم وأخبر عنها وكذبوه، وطلبوا منه الآية وأخذ يصفُ لهم، فيدخلُ بهذا الاعتبار في الآية المتحدى بها.

كان الإسراء مقدمةً للمعراج، فالإسراءُ رحلةٌ أرضية، والمعراجُ رحلةٌ سماوية؛ كانت الأولى على مطية البراق، والرحلة الثانية عَلى آلة الرَّفْرف أو المعراج، وقد قال بعضُ أهل العلم: إنها كانتْ عَلى آلات ومراكبَ مختلفةٍ مِنْ سماء لسماء، وهو شيءٌ ليس عندنا تفصيله، والذي نجزم به أنَّ المعراج لم يكنْ عَلى البراق.

## ألوانُ التعظيم في حديثِ البُراق العظيم

صَدَّرَ سيدنا القاضي عياض رضي الله عنه مبحثَ التعظيم بحديث أنس رضي الله عنه الذي رواه بسنده[2] مِنْ طريق أبي عيسى الترمذي

[2] "حدثنا القاضي الشهيد أبو علي: الحسين بن محمد الحافظ قراءةً مني عليه؛ قال: حدثنا أبو الحسين: المبارك بن عبد الجبار، وأبو الفضل بن خيرون؛ قالا: حدثنا أبو يعلى البغدادي؛ قال: حدثنا أبو علي السّنجي؛ قال: حدثنا محمد بن أحمد بن محبوب، قال: حدثنا أبو عيسى بو سورة الحافظ؛ قال: حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن قتادة، عن أنس.." الشفا، ص: 54.

مِنْ رواية شَيخه أبي علي الصَّدفي شهيد الثغر؛ الحسين بن محمد، الذي [ذكرتُ] بأنه كتبَ معجماً في شُيوخه، وفيه يقول أنس رضي الله عنه: {أُتِيَ بِالْبُرَاقِ لَيْلَةَ أُسْرِيَ به، مُلْجَماً مُسْرَجاً، فَاسْتَصْعَبَ عَلَيْه، فَقال لَهُ جِبْرِيل: أَبِمُحَمَّدٍ تَفْعَلُ هَذا؟ فَما رَكِبَكَ أَحَدٌ أَكْرَمُ عَلى الله مِنْه. قال: فارفَضَّ عَرَقاً}. والحديثُ صحيح، وفي سنن الترمذي بسندٍ حسن، ورواه الإمام أحمد في مسنده[3]، والإمام البيهقي في دلائل النبوءة[4]، فليس عليه كلام، لأنَّ سيدنا القاضي لا يضعُ في الأصول إلا ما تشهدُ له الأصول، وإذا وضع شيئاً في الأطراف، فَلِمَلامحَ ظِراف، تُشَمُّ ولا تُفرك. فلذلك، لسنا مع مَنْ يقول غلا عياض، ولا مِنَ الذين يقولونَ حشاه بالنُّقول المِراض.

صدَّر سيدنا القاضي بهذا الحديث لأنه دالٌ على كل الأبواب التي تتفرعُ عَنْ هذا المطلب، ففيه تعظيم فِعلي مِنْ قِبل الله جَلَّ وعلا لنبيه،

---

[3] مسند الإمام أحمد (164/3).

[4] البيهقي، دلائل النبوة، 362/2.

وفيه ثناءٌ قوليٌّ مِنْ مَلك كَريم، وفيه تعظيمٌ بالحال مِنْ آيةٍ اسمها حياءُ البراق؛ حياءُ دابة.

أوتي بالبراق ليلةَ أُسري برسول الله صلى الله عليه وسلم؛

مَنْ أرسَلَ إليه؟ الله.. أرسل إليه ليُصعِدَهُ إلى حَيْثُ سِدرة المنتهى، إلى مكانٍ يُسمَعُ فيه صَريفُ الأقلام، أرسل إليه بإجماع أهل السير ليُكرمه بإظهار فضيلته في الملإ الأعلى حينَ أُنكر، وكُفر، وجُحِد به جهلاً منهم بقيمة المصطفى صلى الله عليه وسلم؛

بعثَ إليه المَلِك.

في هذا الإرسال تكريم وتعظيم فعلي، وعلى عادة الكرماء مع ضيوفهم [أنهم يبعثونَ] إليهم بمراكبَ على مقاس القدر، ويسوقُ المركب هنا روح القدس؛ جبريل عليه السَّلام.

كيف هو [هذا البُراق]؟ [فنحنُ لا] نعرفُ منه إلا اسمه، وبعض الإشارات [عنه]. البُراق اسمه، ونأخذ مِنه معنيين، **أولا:** [هو] مركبٌ غايةٌ في الجودة والبراقة والتألق والبريق، ويعني [هذا] تمام اللمعان، فهو إذاً

بُراقٌ نوراني. **ثانيا**: البُراق مِنَ البرق، أيْ أنَّ سُرعته لا حدودَ لها. ولذلك، جاءَ في الحديث الصَّحيح: {يَضَعُ حافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهى طَرْفِهِ}[5]، لكنْ: إلى أينَ يُرى طرفه؟ ويكفي أنْ نعلم أنَّ في الإسراء [الذي] تم في جزءٍ يسير مِنَ الليل، انتهى إلى بيتِ المقدس [الذي يُقطع في] مسيرة شهر أو تزيد، كأنني به خطا خطوةً فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم في القُدْس.

أرسل [الله] إليه بمركبَةٍ غايةٍ في التألق والنورانية والسُّرعة، جمالاً يناسبُ جمال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسرعةً حتى لا يتعبَ في رحلته التي كانتْ في جزءٍ يسير مِنَ الليل، ليس مِنْ رحلة بيت المقدس؛ الرحلة الأرضية، بل إلى السَّماوات العُلى.

لذلك، قال الله تعالى: (سُبْحانَ الَّذي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً)[6]، [ذكر] أهل العلم: ما النكتة في كلمة: ليلاً؟ والسُّرى لا يكونُ إلا بليل، فهل هذا حَشْوٌ في بلاغةِ الكتاب؟ [فأجابوا بالقول: إنَّ هذا التأكيد جاءَ] لبيان أنَّ الإسراءَ [تم] في جزءٍ يسير مِنَ الليل، وعاد ولما يبرد فراشه.

---

[5] أخرجه مسلم (162-164).

[6] سورة الإسراء، الآية: 1.

مقاييسُ البشر لا تقوى عَلى الإحاطةِ بالقُدَر والقَدَر، لأنه فعل الله، وقد قال بعضُ أهل العلم: إذا سمعتَ: فَعَلَ ربُّك، فاطْوِ كتابك وحسابك، وضَعْ مقاييسك. أَلَمْ تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟ أو لَمْ ينظروا إلى السَّماء فوقهم كيفَ بنيناها؟ كيف هيَ طبيعةُ هذه الأجرام؟ وكيف انتظامُ أمرها؟ كيف هي وبالبلايين لا تصطدم ولا ترتطم؟ مضبوطة في حسابها، كأنها الكواكبُ العاقلة الساجدة المسبحة (كُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحون)[7]، وكيفية الفعل تَدل على مستوى الفاعل وإمكاناته وقدرته وعلمه واقتداره، فالله أرشدنا إلى الكيفية لنقفَ على آثار الاقتدار، وآثار العلم وأسرار الحكمة، (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ [أَنّا إِنّا] صَبَبْنا الْماءَ صَبّا ثُمَّ شَقَقْنا الْأَرْضَ شَقّا فَأَنْبَتْنا فيها حَبّا وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتوناً وَنَخْلاً وَحَدائِقَ غُلْباً وَفاكِهَةً وَأَبا..)[8].

العادةُ شَيطان، [وهي] تُعطل حركةَ الفكر، والإنسانُ [مثلاً] يأكل الزيتون، ولا يفكر لحظةً واحدةً، كيفَ ظهرتْ هذه الزيتونة؟ وكيف

[7] سورة الأنبياء، الآية: 33.
[8] سورة عبس، الآية 24.

حملت الحبةَ في بطنها وفاءً لأصلها؟ فجاءتْ معها نواة الاستمرار، لتستمر الأصول؛ وفاءُ الفروعِ للأصول حتى في الشَّجر. وكيفَ يعودُ ماءُ السَّماء إلى البحر في النهاية لأنه أصله، وعنه تبخر، أصولٌ في الدورات؛ (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)[9].

استصْعَبَ البُراق على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أيْ؛ اسْتَعْسرَ عليه. تقول العرب: دابةٌ حرون، أيْ؛ لا تتذلل لك، عسيرةٌ في الركوب، ترمي من على ظهرها، وتتأبى على راكبها، [وضِدُّها] دابة ذلول، أيْ؛ مُذَللة، [سهلة الركوب].

وذكر العلماء لسر هذا الاستصعاب مسألتين، **أولا**؛ إما أنه لَمْ يُركبْ، وهذا شائع في الدابة الجديدة خصوصاً الحية، لأنَّ البُراق دابة دونَ البغل وفوقَ الحمار، وهكذا صُوّرتْ ممن سمعوا مِنْ رسول الله صلى الله عليه وسلم[10]، وسألوه عَنْ كيفيتها، **وثانيا**؛ لطول الفترة بين عيسى [عليه السلام] ونبينا صلى الله عليه وسلم، والتي انتهتْ إلى ستة قرون، وهذا يبدو

[9] سورة يس، الآية: 38.
[10] أخرجه البُخاري (3207).

الأقرب، لأنَّ [عبارة]: {فَما رَكِبَكَ}، [تفيد] أنه كانَ مَرْكَب الأنبياء، حتى سُمي بفرس النبوءة.

استصعبَ عليه، فَخاطبَهُ جبريل [عليه السَّلام] قائلاً: {أ بمحَمَّدٍ تَفْعَلُ هذا؟}، وهو استفهامٌ إنكاري، وفيه معنى التوبيخ، فالاستفهامُ الإنكاري **قسمان**: استفهام توبيخي، واستفهام إنكاريٌ إبطالي، الأول؛ إذا كنتَ متلبساً بالفعل، وهو فعلٌ لا يجوز، فهنا يُنكَرُ عليك، أما الإبطالي فلا يكونُ موضِعاً للادعاء، [كقوله تعالى]: (أَصْطفى البَناتِ عَلى الْبَنين)[11]، بمعنى؛ لَمْ يصطفِ البناتِ عَلى البنين، وفيه معنى النفي، أما الأول؛ ففيه توبيخٌ على الفعل.

{أَ بمحَمَّدٍ تَفْعَلُ هَذا}؛ ينكر عليه، ولا يمكنُ للمَلَك أنْ يخاطبَ غير العاقل، والملَكُ يعلم أَنَّه كائنٌ عاقلٌ يعي خطابه، {أ بمحَمَّدٍ}، فسَّماه له، وهذا يدلنا على أنَّ سر الاستصعاب [عدم] معرفته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ابتداءً، وإنْ كانَ يعرفُ اسمه كما كانت الملائكة تعرفُ

[11] سورة الصافات، الآية: 153.

اسمه، وأنه سيُبْعثْ، ونلاحظُ في كُل روايات المعراج، أنَّ جبريل عليه السلام كانَ يقرعُ السَّماء، وهو مِنْ مسائل الغيب، فتجيبه الملائكة: {مَنْ؟ فيقول: جبريل، فيقولون: ومَنْ معك؟ فيقول: محمد، فيقولون: وقد بُعِثَ إليه}[12]، فهم إذاً يعرفونه، وينتظرونَ بعثته.

فلما عرفه [البراق]، تبلَّلَ وتَفَصَّدَ عَرَقاً، بل زاد فارفَضَّ، أيْ؛ سال عرقاً، وجرى عليه كُلاًّ. قال أهل العلم: "فارفضَّ"، والفاءُ [جاءتْ] للسَّبب والترتيب على السابق، بمعنى؛ أنه ارفَضَّ لأجل شُعوره بالتقصير في جانب هذا المفضل عند ربه على هذا النحو، وهذا تعظيمٌ بالحال، لأنَّ الحياءَ رسالةٌ قوية، فأنتَ حينَ تخجلُ في مقام التعريف، وتُدرك أنك مقصرٌ غاية، وتعجز عَنْ أنْ تنطقَ أو تُعبّر عَنْ قُصورك؛ يكونُ الجوابُ ما ترى لا ما تسمع.

حديثُ أنسٍ إذاً، فيه دلالـةٌ عَلى الجهات كلها؛ تعظيم بالفعل فيما صنع الله لنبيه بإرسال الملَك إليه، ودعوة الملِك، وبالقول في ثناء الملَك،

[12] الحديث كاملا مروي بصيغ مختلفة عند البُخاري (3887) (3878)، ومسلم (162).

وبالحال في حياء البراق المعجزة الناطقة الصامتة، ورُبَّ صمتٍ أقوى مِنْ ألفِ نُطْق.

اختيار سيدنا القاضي لهذا الحديث غاية في بابه، حيثُ جاءَ بينَ يدي تناول مبحث التعظيم، كأنه نظرٌ إلى أنَّ هذا النبي معظمٌ مِنْ ربه فعلاً، ومِنَ الملإِ الأعلى قولاً، ومِنْ آياتٍ ومعجزاتٍ وكائناتٍ غريبةٍ تبدو لنا حالاً، في إشارةٍ إلى أنَّ التعظيم قَدْ يكونُ بالقول، كما قَدْ يكونُ بالفعل، كما قد يكونُ بالحال. لذلك؛ الذي لا يستحيي لا يُعظِّم، والذي ليسَ عنده حياءٌ ليس عنده توقير، فالحياءُ شكلٌ مِنْ أشكال التعظيم والثناء وإجلال المقام بهذا اللون مِنْ ألوان الاحترام، وإذا استهدينا بالقول وبالفعل والحال أصبنا الْمِحَز في قضية ما يدل على عظمةِ النبي صلى الله عليه وسلم.

## إمامةٌ قِرى ورؤيةُ الغيوبْ – وتحفةٌ بها عُروجٌ للقُلــــــــوبْ[13]

## فيما تضمنته قصةُ الإسْراء مِنَ الكرامات

ثلاث خصائص، **أولها** تلك التي انطوى عليها حديثُ الإسراء في **إمامة النبي بالأنبياء.** فقد اجتمع النبي صلى الله عليه وسلم بالأنبياء في بيت المقدس، وقيل قبل معراجه، وقيل بعد نزوله مِنَ المعراج، وقيل في الحالين؛ لقيهم أولاً ثم تلقوه بعد الرجوع، وقد مُثلوا له صلى الله عليه وسلم، والتقى بهم، وسلم عليهم، وسلموا عليه باسم: نبي الله ورسول الختم، ثم قدموه ليصلي بهم، وهذا اعترافٌ بإمامته، وعندنا: {يؤم الناسَ أقرؤهم لكتاب الله}[14]، قال سيدنا الإمام مالك رضي الله عنه: أقرؤهم، أيْ؛ أفقههم، كأنه يستشفُ ما سيجيء عليه الحالُ في زمننا؛ قراء بلا فقه.

---

[13] من نظم الشيخ.
[14] أخرجه مسلم (673).

وثاني **الخصائص قِرى الرحلة في ديار الأكرمين**، [حينَ] قدم له جبريل لبناً وخمراً، وقال له: اختر، فمد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يده بتوفيق السَّداد والعصمة وهو لا يعلم ما فيهما، فأخذ اللبن، فقال جبريل: {أصبتَ الفطرة}[15]، ولو [شربتَ] الخمر لغوتْ أمتك، أيْ؛ لو كرامات النبي فضائل لأمته ويجري علينا مِنْ بركاتها، ولو لَوْ، لكان على خِلاف ذلك، وجرى علينا مِنْ شؤم ذلك، حاشاه، والله تبارك وتعالى سَدَّده وعصمه، فكانَ اللبن قِرى رحلة المعراج.

اللبنُ هو مثال الفطرة في صفائه لوناً، وفي غذائيته قوتاً، ومِنْ كونه يخرج مِنْ بين فرثٍ ودم لبناً خالصاً، لأنَّ الفرث يغير الريح، والدم يغير اللون، والتكدر في الطبيعة والصبغة يؤثر عَلى الأصول، وهذا الصفاء الذي في شرعة النبي ومنهجه وقيمه وشمائله هو على هذه الحال (أَقِمْ وَجْهَكَ للدينِ حَنيفاً فِطْرَت الله)[16]؛ الزم الفطرة فهي الدين، وما جاءَ الدينُ إلا ليبني عَلى الفطرة ويكملها، وإنَّ لبن الطفل أصلٌ في تكوين بنيته، والذي

---

[15] أخرجه مسلم (162).
[16] سورة الروم، الآية: 29.

حُرم مِنْ لبن الأم لا بُدَّ وأن يدركه التعثر. ولونُ اللبن غايةٌ في الدلالة على الصَّفاء، والإسلام يقوم في حقائقه عَلى الصَّفاء، وفي فاعليته عَلى قبول النماء، وفي دقة اتزانه يجيءُ بين فِتْنتين وانحرافين. لذلك؛ حسنةُ الحق تكونُ دائماً بينَ رديتين: الإفراط والتفريط، ولقد وصفَ أحد النبيئين وهو مِنْ أنبياء الفطرة والحنيفية بقوله: (ما كانَ ابراهيم يهودياً وَلا نَصْرانياً)[17]، والديانتان حينَ حُرّفتنا صارتْ كلٌّ منهما مثالاً لأحَدِ الطَّرفين، فمثالُ التقصير في اليهود، ومثال الغلو والإفراط في النصارى، وليستِ النصرانية بما هي شِرعةٌ لعيسى، وليست اليهودية بما هي شِرعةٌ لموسى، وإنما بما انتهتْ إليه مِنْ ضلال وتحريف.

و**ثالثُ الخصائص رؤية الغيوب**؛ وهي خلاصةُ الرحلة في الإسراء، وقد خُصص فيها النبي صلى الله عليه وسلم بمطالعة الغيب شهادة، فما كانَ النبي صلى الله عليه وسلم يبشر به ويدعو إليه مِنَ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر رآه كله في ليلة الإسراء والمعراج: رأى

---

[17] سورة آل عمران، الآية: 67.

الملائكة (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى)[18]، ورأى الأنبياء وصلى بهم، ورأى الجنة ودخل إليها، ورأى القدر وبلغ مستوىً سمع فيه صريفَ الأقلام يكتبونَ في نسخهم عَن اللوح أو ما يسمى بنسخ المقادير، فالملائكة المدبرات أمراً مثلاً، والذينَ كلفوا بالتدبير لكلّ كتابٌ ينسخُ منه مما كلفَ به مِنْ كتاب اللوح، وهذا أمرٌ لا ندري صِفته ولا صورته.

ثم بقي مِنَ الغيب؛ **الله**، واختلفوا، هل رأى ربه أم لَمْ يره؟ وحينَ كانَ هناك خلافٌ بينَ أهل العلم مِنَ السَّلف والخلف، عقد له الإمام سيدنا القاضي فصلاً صغيراً[19]، وقال: إنَّ في المسألة ثلاثة مذاهب. **الأولُ** يقولُ بعدم الرؤية، وعلى رأسهم عائشة وابن مسعود، وحجتهم الآية الكريمة: (لا تُدْرِكُهُ الأَبْصار وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصار)[20]. **والثاني** يقولُ بالتوقف، وقد أخذ به بعضُ أهل العلم مِنَ المتأخرين كالإمام القرطبي، وقالوا: لا دليل عَلى الإثبات ولا على الجمع، فنفوض. أما **الثالث** والذي رجحه صاحبُ الشفاء، ويقول بأنَّ الرؤية تمتِ وتحققتْ، وهو مذهبُ سيدنا عبد الله بن عباس،

---

[18] سورة النجم، الآية: 13.

[19] الشفا، ص : 245.

[20] سورة الأنعام، الآية: 103.

وابن خزيمة، وقد ردَّ [هذا الأخير] عَلى الذينَ أبطلوا الرؤية وردوا بِعَدَمِها، ومِنْ أدلة الحافظ أربعة أدلة، [وهي] كافية في الباب عَلى أنَّ الرؤية حق.

**أولها:** الدليلُ العقلي، فقال بأنَّ هذا الأمر لا يستحيل، وليسَ مِنَ المستحيل عقلاً أنْ لا يُرى الله، لأنَّ كل موجود رؤيته جائزة، ولا شيء يمنعُ الموجود مِنْ أنْ يُرى في الأصل.

**ثانيها:** مِنْ جهة ما استدلوا به، وهو الآية [الكريمة]: (لا تُدْرِكْهُ الْأَبْصار)، وليسَ فيها نفيٌ للرؤية وإنما نفيٌ للإدراك، والإدراك غير الرؤية، فانفك النفي عَنْ أنْ يكونَ مُنصباً عَلى أصل الرؤية. لا تدركه، أيْ: لا تحيط به، وهذه مسألة مطردة في الدنيا وفي الآخرة، لأنَّ القرآن لَمْ يقل: لا تدركه الأبصار في الدنيا، بل قال: لا تدركه الأبصار مطلقاً، وهو يدرك سبحانه الأبصار مطلقاً ويحيط بها، والإحاطة هذه منسحبة عَلى الدنيا والآخرة، فلم خصصتموها أولاً لتجعلوها دليلاً على النفي في الدنيا؟ لأنَّ

القائل بنفي الرؤية قائلٌ بنفيها هنا، وهم يثبتونها في الآخرة، فلا يصلحُ هذا أنْ يكونَ دليلاً لهم.

**ثالثها:** سؤال موسى ربه جل في علاه الرؤيةَ (قالَ رَب أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْك)[21]، قال أهل العلم: لا يُتصور عقائدياً أنْ يكونَ النبيُّ لا يعرفُ ما يستحيلُ على الله وما يجوز عليه، والعقائدُ حقائق [ليس] فيها اجتهادات، ولا يمكنُ أنْ يجهل النبيُّ شيئاً مِنْ أمور العقيدة التي ترجعُ لله، فلم يسأل موسى حتى [تقرر] عنده علمٌ بإمكان الرؤية، ثم جواب الله على سؤاله، حيثُ لم يجئ الجوابُ نفياً للإمكان، وإنما نفياً لقدرته هو عَلى الإمكان عَلى أنْ يَرى، فلم يقل الله: لن أُرى، أو أنا لا أُرى، بل قال: (لَنْ تراني)، أيْ؛ أنت. ولذلك يقولُ الإمام مالك رضي الله عنه: لأنَّ العين الفانية لا ترى الباقي، فلو قواها الله بسر قوته لأمكنَ أن يُرى.

ونقول هنا: الله عز وجل شهد لعين النبي صلى الله عليه وسلم أنها وصلتْ قمة القوة؛ (ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى): قمة التوجه، (ما كَذَبَ الْفُؤادُ

---

[21] سورة الأعراف، الآية: 142.

ما رَأى): قوة النفاذ، ولذلك دَلَّ عَلى أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم مُنح مِنَ القوى ما لَمْ يُمنح مِنْ قبل، ودليلها حديثُ الشَّق، فالنبيُّ صلى الله عليه وسلم شُقَّ بطنه في بني سعد في صباه، ثم شُقَّ وهو على باب الإسراء والمعراج، وقد حدثَ فيه آيتيْ شَق، ولم يُشق قلبُ نبي غيره، فكانَ مِنْ خصائصه. والاتفاقُ على أنَّ هذين الشقين [حدثا] في الطفولة وليلة المعراج، ولا أحدَ يختلفُ عليهما بينما الاختلاف في شَقين آخرين.

شُق صدره صلى الله عليه وسلم، {فُرِجَ عَنْ سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرجَ صدري}[22]؛ حدثَ الشق في السقف ابتداءً ليؤنسه، وهذا مِنْ لطف الله وحنوه وتعطفه، وفيه دلالةٌ على مقام التكريم، والسَّقف عندنا ملتحمٌ مرفوعٌ عَلى دعامات، وإذا شقَّ انهار، فإذا رآه صلى الله عليه وسلم انشقَ ثم التأم أنَّسه ذلك بأنه لو حصل له هذا الشق فسيكونُ مرتاحاً بأنَّ الذي شقَّ هذا هو الذي تولى شقَّ هذا، وهو قادرٌ مِنَ القدرة والقوة أنْ يرجعه كذلك.

[22] أخرجه البخاري (349)، ومسلم (163).

شُقَّ عَنْ قلب النبي صلى الله عليه وسلم، وغُسِل غسلاً وملئ بإيمان وحكمة، كأنَّ فيه تحصينٌ للنبي صلى الله عليه وسلم، لأنه سيرحل إلى عالم خاص يحتاجُ فيه إلى قوى وأنوار زائدة، فزُود النبي صلى الله عليه وسلم بطاقةٍ تتناسبُ مع طبيعة الرحلة السَّماوية، وهي مِنْ أسباب شَرح الصَّدر (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)، وقد كانَ الشَّق ابتداءً لإزالة حظ الشيطان منه، وهذا أصلٌ لعصمةِ النبي صلى الله عليه وسلم.

**والدليل الرابع:** قال سيدنا القاضي: هو الحديثُ المشهور، {نورٌ أنَّى أراه}[23]، وحديث {رَأَيْتُ نوراً}[24]، وحديث ابن عباس رضي الله عنه: {هي رؤيا عَيْن..}[25]. وقد كانَ الإمام أحمد بن حنبل يحلفُ على هذه الرؤية، وهو هُوَ تمسكاً بالصَّحيح. ثم قال سيدنا القاضي: إذا كانَ الكلامُ لموسى، والخلة لابراهيم، فماذا بقي لمحمد؟[26] أيْ أنه يجادلُ في أنَّ الرؤية هي خاصةٌ به صلى الله عليه وسلم. ويكفي أنْ نعلم أنَّ هذه الرؤية ليستْ

---

[23] أخرجه مسلم (291/178).

[24] أخرجه مسلم (292/178).

[25] أخرجه البخاري (4716).

[26] الشفا، ص: 245-253.

كما نرى نحنُ الأشياء [مِنْ حولنا]، خصوصاً وأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم رأى بهذا التزويد الذي رأيناه؛ قواه الله فصار بصره عَلى ما حكى (ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى)، وقوة نفوذ (ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى)، فأصبح يرى بقلبه كما يرى بعينه، واتحدَتْ فيه العينُ بالقلب، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم كانَ مُعَداً لهذه الرؤية؛ {إنَّ عَيْنَيَّ تَنامان وَلا يَنامُ قَلْبي}[27]، وهو مفتوحٌ على الملأ الأعلى. وكل الأشياء تقربنا مِنْ هذه الخصائص، فلا نقيسُ النبي على أنفسنا فيما خُصَّ به، لأنَّ الله أَهَّلَهُ إليه، ويكونُ القياس مع فارق كبير وبون شاسع.

---

[27] متفق عليه.

## في مناجاتهِ لله تعالى وكلامِهِ معه

كلم الله موسى مِنْ وراء الطور، وحصل هذا مرةً مِنْ وراء حجاب، وكلمَ الله محمداً صلى الله عليه وسلم هناك لا هنا، وتردَّدَ زُهاء عشر مراتٍ بينه وبينَ موسى، وتكـرّر التكليم وما عُرف في نص أنَّ الواسطة كانَ جبريل، وفي نهاية الحديث، {حَتى قال: يا مُحَمَّد، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَواتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَة، لِكُل صَلاةٍ عَشْرٌ، فَتِلْكَ خَمْسونَ صَلاة}، ما يبدِّلُ القول، {قَدْ رَجَعْتُ إلى ربي حتى اسْتَحْيَيْتُ منه}[28]، والاستحياءُ إنما يكونُ في مقام المواجهة.

وتحفة العروج أنه [سبحانه وتعالى] قَراه وقـرَّبه وناجاه وأتحفه بتحفة الصَّلاة، وقال له: خُذْ، هذه لأمتك كرامةً لَهُمْ، ليَعْرُجوا إليَّ متى ما شاءوا؛ اسجدْ واقتربْ [حينَ] تريدُ أنْ تعرج إلي، قُمْ للصَّلاة فإنها مِعراجك، والمصلي يناجي ربه في الصَّحيح[29]، والمناجاة لا تكونُ إلا مِنْ قُرب،

---

[28] أخرجه مسلم (162).

[29] عن ابن عمر قال: {... إنَّ الْمُصلي يُناجي ربه عَزَّ وجل، فليَنْظُر أَحَدُكم بما يُناجي..}. أخرجه أحمد (4797)، وغيره.

والنجوى حديثُ السر، ولا [يمكنُ أنْ] تناجي إلا قريباً مُواجهاً، ومنه الحديث: {إذا كانَ أَحَدُكُمْ يُصَلي فَلا يَبْصُقْ قِبَلَ وَجْهِهِ، فَإِنَّ الله قِبَلَ وَجْهِهِ إذا صَلى}[30]، فالصَّلاةُ عبادة القرب ومعراج العبد وتحفة الإسراء والمعراج، والمنكر لها والمكذبُ بها كافر بمعجزة النبي صلى الله عليه وسلم ومتنكرٌ لربه، بل والتارك لها مقطوعٌ عن الوصل، ولذلك؛ المتهجدونَ بالليل مذكورونَ في السَّماء، والسر في ذلك ما قال النبي صلى الله عليه وسلم لما مَرَّ بالسماوات فرأى عبادةَ الملائكة؛ منهم سجود، ومنهم قيام، ومنهم جاثونَ على الرُّكب، ومنهم ركوعٌ آماد، فرغبَ أنْ يكونَ لأمته نوع مِنْ عبادتهم، فجمع الله له عبادة الملائكة وأعطاه تحفةَ الصَّلاة.

ومما جرى مِنَ الحوار والأسرار في قصة المعراج؛ بكاءُ موسى عليه السَّلام حينَ جاوزه النبي صلى الله عليه وسلم مِنَ السَّماء السادسة إلى السَّماء السابعة، فنودي: {ما يبكيك؟ قال: رب، هذا الغلامُ بَعْدي يَدْخُلُ مِنْ أمته الجنة أكثر مما يَدْخُلُ أمتي}[31]. فأدركته الغيرة؛ غيرة التقرب مِنَ

[30] أخرجه مسلم (547).

[31] أخرجه البخاري (3207)، ومسلم (164).

الله، وهو الكليم المدلل بالمناجاة، فخاصم موسى ربه في نبينا، يقول له: رفعته علي، والأنبياء غيرتهم نورانية (سابِقوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبّكُمْ) (أولَئِكَ الَّذينَ يَدْعونَ يَبْتَغونَ إِلى رَبهم الْوَسيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَب).

